مقدمة الترجمة لكتاب

جغرافية السياسة في روسيا [*]

ألكسندر دوجين – موسكو ٢٠١٦

بقلم/ عاطف معتمد ..القاهرة ٢٠١٧

طفت خلال عملي في موسكو بين عامي ٢٠١٤ و ٢٠١٦ مكتبات ومراكز عدة مفتشا عن كتاب يخبرنا عمَّا تقوله روسيا عن نفسها، لا ما يسوقه الغرب عنها ولا ما يتصوره الشرق بشأنها. "جغرافية السياسة في روسيا" موضوع جد مهم للعالم، ولفضائنا العربي، سيما في ظل الدور المتزايد الذي تلعبه روسيا في قضايا بلادنا ومسائل دولية أخرى، تتنازعها موجات الحرب والصدام.

ألكسندر دوجين، مؤلف العمل الذي بين أيدينا، كاتب روسي شهير، باحث مهم في علم الاجتماع السياسي، وفي الجغرافيا السياسية. ينتمي دوجين إلى تيار القوميين المناصرين لسياسة روسيا المواجهة للغرب والساعية إلى استعادة مكانتها قطبا دوليا ثانيا. للمؤلف أكثر من أربعين كتابا وبحثا ودراسة. أعمال دوجين غزيرة ومتنوعة ودسمة، والكتاب الحالي ربما هو ذروة تلك الأعمال نضجا واكتمالا في أطروحته الفكرية وترسانته المعلوماتية.

جغرافية السياسة أم سياسة الجغرافيا؟

"جيوبوليتيكا روسيا" هو العنوان الأصلي لهذا الكتاب. يعني مصطلح جيوبوليتيك دراسة العلاقة بين الدولة والمجتمع والفضاء الجغرافي. ومن أسفٍ، ليس لدينا مقابل موفق في اللغة العربية لهذا المصطلح، ومرد ذلك تقصير من المترجمين، ففريق ينقل الكلمة "جيوبوليتيكا" دون ترجمة؛ وفريق يرسم شطر الكلمة الأول ويترجم الشطر الثاني فيتولد لدينا مقابل أعرج هو "جيوسياسة"؛ أما الفريق الثالث فيترجمها – في تبسيط مضلل – إلى "الجغرافيا السياسية"، وهو مقابل عربي واضح وجلي، لكنه جاء هنا استلابا من فرع علمي آخر اسمه Political Geography.

---

[*] الناشر: المركز القومي للترجمة (تحت الطبع)

ورغم أن العنوان الذي اخترناه هنا "جغرافية السياسة في روسيا" لم ينج من هذه الأزمة الاصطلاحية، إلا أننا باستثناء تبسيط الأمر للقارئ في عنوان جذاب، آثرنا تبني المصطلح الأصلي "جيوبوليتيك" دون ترجمته إلى جيوسياسة (إلا نادرا) أو جغرافيا سياسية. وربما يصل البحث في القريب إلى مصطلح عربي موفق لهذا التخصص الذي ما زلنا نقف منه موقف المشاهد رغم أن أقطارنا وشعوبنا تقع في مركز هذا المبحث العلمي، على نحو ما سيتضح من صفحات هذا الكتاب.

ثمة فروقات دقيقة بين "الجغرافيا السياسية" و"الجيوبولتيك" أهمها أن الأول ينشغل بدراسة القوى السياسية (شعوب وحركات اجتماعية ودول ومنظمات...ألخ) في حالتها الساكنة المستقرة وخصائصها الحالية من حدود سياسية وعوامل قوة وضعف وما شابه؛ أما الثاني فيدرس الدولة في حالتها المتحركة الفوَّارة المتغيرة اتساعا وانكماشا وفقا للعوالم الداخلية والخارجية التي تهيمن عليها وتحكم تطورها وتوجه محور نموها.

الفارق إذا هو بين دراسة الكيان السياسي في حالة الثبات (الجغرافيا السياسية) وفي حالة التقلب والدينامية (الجيوبوليتيك). ولابد من الاعتراف أن الفصل بين الحالتين (الثبات والدينامية) أمر جد عسير، فما من كيان سياسي (قبيلة بدائية أو إمبراطورية عظمى) إلا وتنتقل من فترة لأخرى من الثبات إلى التغير ومن التغير إلى الثبات. ففي فترة يمكن رؤيتها في "الجغرافيا السياسية"، وفي فترة أخرى في "الجيوبوليتيك". ويبدو أن الكيانات السياسية - المستجيبة للبيئة التي لا تقبل إلا أن تكون كائنا حيا لا جسدا جامدا - تعيش قصة طويلة من "الجيوبوليتيك" تضم بين دفتيها فصولا متفرقة متباعدة وقصيرة من "الجغرافيا السياسية".

وفي الكتاب الذي بين أيدينا افترضنا أن المقابل العربي للعنوان الأصلي هو "جغرافية السياسة في روسيا" قاصدين بذلك متابعة المراحل التي تحكمت خلالها العوامل الجغرافية (الموقع، والتكوين العرقي والديني للسكان، ونظم الحكم، والصراع مع الجيران..إلخ) في مسيرة الحراك السياسي وقراراته في روسيا.

موجز الرواية الطويلة في هذا الكتاب

بشكل أكاديمي، ظهرت جغرافية السياسة (الجيوبوليتيك) في نهاية القرن التاسع ومطلع القرن العشرين كتخصص علمي يحلل العلاقات الدولية ويراجع أساليب التفكير الاستراتيجي. كان الآباء

المؤسسون علماء بارزين من أمثال الألماني فريدريك راتزل (١٨٤٤ -١٩٠٤)، الأمريكي ألفريد ماهان (١٨٤٠ - ١٩١٤)، السويدي رودلف كيلين (١٨٦٤- ١٩٢٢)، الألماني كارل هاوسهوفر (١٨٦٩- ١٩٤٦)، الإنجليزي هالفورد ماكيندر(١٨٦١- ١٩٤٧) والألماني كارل شميت كارل شميت (١٨٨٨- ١٩٨٥). إضافة إلى علماء روس كثر من بينهم ألكسي فاندام (١٨٦٧- ١٩٣٣) بنيامين سيميونوف التيان شاني (١٨٧٠- ١٩٤٢) و بيتر سافيتسكي (١٨٩٥- ١٩٦٥).

ظل الجيوبوليتيك تخصصا علميا حائرا بين تخصصات علمية متقاطعة، ومتأرجحا بين كونه "علما" أو مجرد مجموعة أفكار دعائية تخدم طموحات الساسة والزعماء من أجل توسعة حدود الدولة ومواردها. وكان من سوء طالع هذا التخصص أن هتلر في مشروعه الاستعماري اعتمد عليه في الدعاية والحشد مازجا بين الأساطير والشعارات الغوغائية والخرائط والمصطلحات العلمية. في المقابل، نظر الشيوعيون إلى هذا التخصص العلمي باعتباره علما زائفا برجوازي النهج والمسار. ولم يعد لهذا التخصص قبولا في روسيا طيلة حياة الاتحاد السوفيتي، ولم يخرج من عتمة الاتهام سوى في أوائل تسعينيات القرن العشرين.

قوى البر وقوى البحر

منذ القرن التاسع الميلادي وما إن تشكل نظام سياسي للقبائل الروسية (من نوفغورود مرورا بكييف وبقية مدن روسيا في شرق أوروبا) وجد الروس أنفسهم رهناء بتأثير قوتين: قوى البر الآسيوي وقوى البحر الأوروبي. المناطق التي يعيش فيها الروس تصنف في الجيوبوليتيك ضمن "قلب الأرض" أي المنطقة المركزية للعالم وعصب جسدها، وكانت دوما في الفكر الغربي هي تلك المنطقة الواصلة/الفاصلة بين أوروبا وآسيا (أوروآسيا) وبصفة خاصة في إقليم شرق أوروبا. ورغم أهمية منطقة الشرق الأوسط والعالم العربي في الصراع بين قوى البحر وقوى البر إلا أن عالمنا العربي يقع ضمن نطاق "منطقة الصدام" بين القوى أو ما يعرف بمنطقة "الأرض الحافة Rimland".

تنظر روسيا إلى نفسها في هذا الصراع كحضارة أوروآسيوية، أمة وسط، إمبراطورية وسطى، دولة وسيطة بين حضارتي الشرق والغرب. وفي ذلك يقول المفكرون الروس إنه إذا كانت "وسطية" ألمانيا تقتصر على السياق الأوروبي، وأن أوروبا نفسها ليست سوى "رأس غربي" لأوراسيا، فإن روسيا تشغل موقعا مركزيا وسطا داخل القارة الأوراسية الشاسعة. يقول أحد الكتاب الروس: "وسطية روسيا أساس هويتها التاريخية. هي ليست جزءا من أوروبا وليست امتدادا لآسيا، هي عالم أصيل، واقع جيوسياسي

روحي وتاريخي مستقل ومميز؛ هي روسيا/أوراسيا. أخذا في الاعتبار أن "أوراسيا" في هذا السياق لا تعني الجسد المادي للقارة، بل الفكرة المنعكسة في الفضاء المكاني الروسي والثقافة الروسية.

أُم المدائن !

فيما بين القرنين السادس والسابع بدأ العالم يعرف قبائل ذات أصول سلافية شرقية استوطنت شرق أوروبا. كانت تلك القبائل تمارس حياة بدائية قائمة على استثمار موارد الغابات، وزراعة الأرض المقتطعة من الغابة، والتجارة بين بحر البلطيق في الشمال والبحر الأسود في الجنوب. ستنسب هذه القبائل إلى شعب الفارانجية الذي هو بدوره من الفايكنج المستوطن لشبه جزيرة إسكندناوة. في السياق العربي والإسلامي سيشار إلى الفارانجيين والسلاف والروس باسم "الصقالبة"[*].

من المرجح أنه لم يكن لدى هذه العشائر القدرة لبناء دولة وحكومة، وكان القتال والفتن الداخلية يستنزف طاقتها ويعكر صفو حياتها، ومن ثم لجأت إلى خيار مرير لا مفر منه ألا وهو مناداة قبائل مجاورة أشد بأسا وتنظيما لتحكمها! على هذا النحو وصل في عام ٨٦٢ م من شبه جزيرة إسكندناوة القائد روريك ومعه أفواج من القبائل الفارانجية (من الفايكنج) واتخذوا من مدينة "نوفغورود" مركزا ليحكمون منه الإقليم الذي تنتشر فيه القبائل السلافية.

كان الفارانجيون "برابرة" ومحاربين أشداء غلاظ وأصحاب قيم هرمية تراتبية ذكورية عدوانية صارمة، وكانوا في حالة حملات عسكرية مستمرة. لم يكن التركيب الاجتماعي والاقتصادي هنا يتجاوز حالة من "بدو الأنهار" الذين يتركون الحصان على شاطئ النهر ثم يتخذون القارب سفينة وعربة حربية في آن. جمعت القبائل السلافية هنا بين شعوب بدو السهوب وبرابرة أوروبا الشمالية (الفايكنج) في أول مزج بين حضارة أوروبا/آسيا: أوروآسيا.

وإذا كان النظام السياسي لهذه القبائل قد نشأ في مدينة نوفغورود على مقربة من بحر البلطيق (إسكندناوة) على يد روريك، فإن خليفته أمير الحرب أوليغ (٨٥٥-٩١٢ م) لم يلبث أن نقل العاصمة إلى مدينة كييف على نهر الدنيبر. على هذا النحو كانت أول عاصمة للسلاف الشرقيين هي نوفغورود ولم يطل عمرها سوى لنحو عقدين من الزمن قبل أن ينقل أوليغ العاصمة إلى كييف وتنشأ مرحلة يسميها

---

[*] سمع العالم لأول مرة عن هذه القبائل من خلال رحلة احمد بن فضلان التي قام بها في عام ٩٢٢ ميلادية في عهد الخليفة العباس المقتدر بالله.

المؤرخون عصر "روس كييف" وستصبح تلك المدينة "أم المدائن" في شرق أوروبا. فيما بين القرنين التاسع والحادي عشر سيستمر صعود "روس كييف" قويا.

جدير بالذكر أن كييف لم تتأسس من العدم، فالأرجح أنها كانت في الأصل محطة أسسها أمراء دولة الخزر (تلك التي امتدت فيما بين البحر الأسود وبحر قزوين وبلغت ذروة اتساعها في القرن الثامن الميلادي) واتخذ الخزر من كييف نقطة تجميع الجزية على نهر الدنيبر. سيظل الروس أسرى لهيمنة الخزر إلى أن يتمكنوا من إنزال هزيمة بهم والتحرر من نفوذهم في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي ليصبح الطريق ممهدا أمام القبائل الروسية إلى محور بحر قزوين الذي كانت إمبراطورية الخزر قد أغلقته عبر قرون. وسيعمل بقية حكام تلك الفترة على توسعة حدود النفوذ أفقيا نحو الغرب أيضا، على نحو ما سعى الأمير سفياتوسلاف (٩٤٥-٩٧٢ م) إلى إنشاء عاصمة جديدة بالاتجاه جنوبا بغرب نحو نهر الدانوب في بلغاريا ومشروعه الذي لم يتحقق بإقامة مدينة بيرياسلافيتس. وكسمة تلك العصور تقاتل أبناء سفياتسلاف بعد موته على حكم "روس كييف" التي بناها هو وأجداده من قبله، وتصارع الأبناء فيما بينهم ومهدوا لاغتيال بعضهم بعضا.

في هذا الصراع على عرش كييف كان الأمراء يستعينون بقوى أجنبية، البعض كان يلجأ لبدو بحر قزوين والبحر الأسود (مثل البجناك) والبعض الآخر كان يلجأ للفارانجية (إسكندناوة مرة أخرى) وفريق ثالث سيلجأ في فترات صراع مقبلة إلى البولنديين. في نهاية عصر "روسيا كييف" ستتشرذم الدولة إلى خمس مقاطعات متنافرة.

تعاقب على حكم "روس كييف" أكثر من ٤٠ أميرا من آل روريك، امتدت فترة حكمهم فيما بين القرنين التاسع والثاني عشر. انقسم مجتمع القبائل الروسية خلال هذه الفترة إلى شريحتين رئيستين تعكسان طبيعة المجتمع الأوروآسيوي. فالنخبة الأجنبية التي كانت مكونة بشكل رئيسي من ممثلي عرقية محاربة، فرضت سيطرتها ونفوذها على القبائل الريفية المستقرة المسالمة، التي شكلت بدورها الأساس الاقتصادي للحياة والجزء الأكبر من السكان، ونتيجة لذلك نشأ نظام اجتماعي وسياسي معقد.

عشرات القبائل الروسية كان يشتتها عبادة الأوثان والآلهة المتعددة. ومن ثم كان اعتناق الأميرة أوليغا (زوجة الأمير إيغور وخليفته على العرش بعد وفاته بين عامي ٩٤٥ و٩٦٢ م) للديانة المسيحية علامة مهمة على بداية دخول المسيحية إلى الفضاء الجغرافي الذي ستتنتشر فيه الدولة الروسية في المستقبل. بوصول الأمير فلاديمير إلى السلطة (٩٨٠- ١٠١٥م) ستتحول الديانة المسيحية إلى ديانة

رسمية وسيتم "تنصير" القبائل المتشتتة بين آلهة وثنية ذات نعرات قبلية، وهو ما سيمهد الطريق للوحدة الروسية ليس فقط بالعامل العسكري والقومي بل وبالدين أيضا، وستصبح روسيا من تلك اللحظة جزءًا من الحضارة المسيحية الشرقية.

باعتناقه المسيحية وضع فلاديمير الكنيسة الروسية في تبعية مباشرة لبطريرك القسطنطينية. في البداية تم تصنيف "روس كييف" كأبرشية تابعة للكنيسة اليونانية، لكن منذ عام ١١٠٠ صارت مطرانية مستقلة، ومن تلك اللحظة كان معظم المطارنة الروس يونانيين وكانوا يعينون من القسطنطينية مباشرة. وإلى جانب الدين، استعارت "روس كييف" من بيزنطة الأبجدية الكيريلية التي ستتطور عنها الأبجدية الروسية لاحقا. وصارت بيزنطة والثقافة اليونانية المثال الذي تحتذي به كييف على المستوى الثقافي والاجتماعي والسياسي.

محصلة تطور الجغرافيا السياسية في عصر "روس كييف" تشير إلى أن تلك الدولة تشكلت في القطاع الشمالي الغربي من العالم الطوراني (التوركي) الآسيوي. فهذا الإقليم الغابي، جمع في آن بين أقصى طرف للفضاء الأوروبي الشرقي وأقصى طرف للفضاء الآسيوي الغربي. وبالتالي تحمل روس الكييفية منذ البداية توجها جيوسياسيا مزدوجا. فقد كان بإمكانها أن تقترب من الجغرافيا السياسية الأوروبية، أو أن تتحرك صوب الطورانية السهوبية. وهنا تكمن الميزة الأساسية التي تميزها عن باقي أنماط وأنواع الدول التي سبقتها وكانت قائمة وموجودة في الفضاءات المكانية إما بشكل دائم في السهوب أو بشكل دائم في الغابات. في روس الكييفية نجحت تبنت الغابة للمرة الأولى محاولة فرض سيطرتها على السهوب العظمى.

وبعد تشكلها في وحدة متكاملة، وجدت روس الكييفية نفسها مضطرة باستمرار لمواجهة التحديات الجيوسياسية القادمة من جميع الجهات: من الشمال الفارانجيون وغيرهم من القبائل الجرمانية، ومن الغرب البولنديون (اللياخ)، والهنغاريون (وبمفهوم أعم، العالم الكاثوليكي)، ومن الجنوب خليط من شعوب السهوب (الخزر والشركس والياس والبجناك والكومان)، أما من اتجاه الشرق فلم تكن هناك جهة واحدة قائمة، ولذلك أخذ تأثير الدولة الروسية في اتجاه نهر الفولغا ينتشر تدريجيا وبشكل منهجي، دون أية تصادمات درامية (باستثناء عقبة بلغار الفولغا). في الجنوب الشرقي نمت العلاقات بشكل ديناميكي مع بلغاريا الأرثوذكسية.

من الوحدة إلى الانقسام

تلت حقبة "العصر الذهبي" لدولة كييف فترة يرثى لها في الاضمحلال والانقسام. وإذا لجأنا إلى آلية الجدلية، فمن الممكن وصف الفترة الأولى (حوالي مائتي عام) لروس الكييفية بداية من حكم روريك وحتى فلاديمير مونوماخ بأنها كانت *أطروحة* موحدة، أما الفترة اللاحقة عليها (أيضا استمرت ما يقرب من مائتي عام) فيمكن وصفها بأنها *أطروحة مناقضة*.

فقد شهدت المرحلة الأولى إنشاء الدولة وتوسعها وتقويتها، في حين كانت المرحلة التالية مرحلة ضعف وانحسار وتهاوي للدولة. وفقد المجال الجيوسياسي لروس كييف في هذه المرحلة الترابط والاتصال، والمرونة والوحدة، واكتسب النظام برمته طابعا متعدد المراكز، مجزأ وهشاً.

تبدأ فترة الإمارات الإقطاعية المنفصلة بعد وفاة فلاديمير مونوماخ. والدخول إلى فترة الإمارات الإقطاعية المنفصلة، وأصبحت دولة كييف الموحدة جزءا من الماضي، وبقيت لعدة قرون مقبلة قائمة شكليا فقط.

وبدأت تتشكل تدريجيا في كل إمارة من هذه الإمارات سلالة الأسر الخاصة بها التي حصلت على المزيد من الحقوق المستقلة. وبدأ المؤرخون يطلقون عليها اسم "الأرض"، بينما كانت توصف في السابق بالدول والإمارات. فضلاً عن ذلك تشكلت داخل هذه الإمارات إقطاعيات إضافية لتكون بمثابة "مخصصات إقطاعية" لمختلف فروع السلالات الجديدة. وهكذا دخلت روس في دوامة طويلة من الاضمحلال، حيث تغلبت قوى الطرد المركزي على قوى الجذب المركزي.

ومن بين جميع الإمارات المنفصلة المتناحرة يسترعى الانتباه خمسة أقاليم (أو كما يسميهم البعض المدن الخمس: بنتابوليس) موزعة على الجهات الأصلية الأساسية. وإذا كان العلماء متفقين على أن بداية فترة الانقسام تؤرخ بعام ١١٣٢ (مع موت الأمير مستسيلاف المعظم) إلا أنهم مختلفين في تحديد تاريخ نهايتها:

- فريق يرى أن الانقسام والتشظي استمر لنحو أربعة قرون ولم تبدأ مرحلة إعادة التوحيد إلا في عام ١٥٣٣ (عهد فاسيلي الثالث). ويشمل ذلك وقوع الأراضي الروسية في تلك الفترة أيضا تحت سلطة الغزو المغولي الذي بدأ عام ١٢٤٠ م.

- فريق يرى أن مرحلة "روس الإمارات الإقطاعية" لم تدم لأكثر من قرن ونصف القرن لأنه انتهى في عام ١٢٧٦، أي تاريخ تأسيس إمارة موسكو[*] والتي ستصبح بداية لتوحيد أراضي روس مجددا خلال القرون المقبلة.

ويبدو أنه رغم تسليم المؤرخين بحدوث هذا التفسخ "الجغرافي السياسي" لفترة "روس كييف" وما كان يتبعها من إمارات وأقاليم وتشرذمها إلى أجزاء منفصلة متناحرة إلا أنهم لا يستبعدون أن عنصرا مشتركا كان يجمع المكون "الروسي" بفضل النزعة البيزنطية، التي تضمنت الديانة الأرثوذكسية، واللغة، فضلا عن اعتراف كل الإمارات، ولو شكليا، بمبدأ العرش الأميري المعظم كمرجعية سياسية متفوقة من الناحية الشرعية والقانونية على الاختصاصات السياسية للأمراء المنفصلين أو مؤسسات السلطة الأخرى.

ونتيجة الانقسام وكرد فعل على تراجع أهمية كييف سينقل آل روريك عاصمتهم إلى مركز ثالث جديد، هذه المرة من كييف على نهر الدنيبر إلى الأحباس العليا لنهر الفولغا مؤسسين مدينة جديدة هي "فلاديمير"، وذلك في نقلة نوعية للوزن الجغرافي لدولة "روس" التي سيتجه محورها من الآن فصاعدا إلى الشمال الشرقي من كييف. بالتدريج تصبح إمارة فلاديمير العظمى هي الإمارة المسيطرة بين القبائل الروسية التي كانت مجزأة ومتصارعة بين أبناء آل روريك. وسيتوالي على حكم فلاديمير نحو ٢٦ أميرا خلال فترة امتدت من نهاية القرن الثاني عشر وحتى مطلع القرن الرابع عشر، ولعل أبرز حكام تلك الفترة ألكسندر نيفسكي (والذي امتدت فترة حكمه فيما بين ١٢٥٢ وحتى ١٢٦٣).

لولا المغول ما كانت روسيا !

كان سقوط كييف في عام ١٢٤٠ في يد المغول وما أعملوه فيها من سلب ونهب وقتل فصلا جديدا فيما ستشهده روسيا فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر، سيما بعد أن دانت روسيا كييف مستعمرة من بين مستعمرات الإمبراطورية المغولية التترية. وعلى خلاف ما أشاعه بعض علماء الجغرافيا السياسية من أن غزو المغول كان نقمة وذلة للقبائل الروسية وأخذها إلى مصاف التخلف،

---

[*] الأمير يوري دولغوروكي تحديدا هو من أسس مدينة موسكو عام ١١٤٧. كما وضع حجر الأساس لمدن مثل دميتروف، زفينيغورود، بيرياسلافل، يورييف بولسكي...إلخ، بينما كانت مدينة سوزدال هي العاصمة في فترة حكمه التي امتدت من تسعينيات القرن ١١ وحتى عام ١١٥٧.

أعاد عدد من العلماء الروس النظر للدور المغولي التتري معتبرين إياه هو الأساس السياسي الذي قامت عليه روسيا الحديثة!

"لولا المغول لما قامت روسيا" مقولة أطلقها المفكر الروسي سافيتسكي (في عام ١٩٢٢) معتبرا أنه بفضل "القبيلة الذهبية" التترية اكتسبت روسيا استقلالها الجيوسياسي وحافظت على استقلالها الروحي من عدوانية العالم الروماني الجرماني. سافيتسكي وغيره من العلماء يردون الاعتبار لتأثير "طوران" (الشرق الآسيوي المغولي والتتري والتوركي بعمومه) باعتباره مفهوما حضاريا وجيوسياسيا مميزا عن التأثير الأوربي في الغرب. في هذا السياق فإن ما حصدته روسيا من إقامة دولة ذات مؤسسة على أجهزة ونظم إدارية وغيرها إنما الفضل فيه إلى "إرث جنكيز خان".

ولنا هنا في الترجمة وقفة مع وجهة النظر هذه. فإذا كان مؤلف الكتاب ألكسندر دوجين يناقش هذه الأطروحة إلا أنه لم يطرح السؤال المهم "من أين أتي المغول والتتار بالنظم الإدارية والسياسية التي تبنتها روسيا فيما بعد. كيف تمكن المغول والتتار من بناء نظام سياسي معقد وهم أبناء البداوة والغزو والسلب والنهب والحرق؟ كيف أقاموا حضارة تبنتها روسيا؟ يتحاشى المؤلف الإجابة على هذا السؤال (هو لا يطرحه أساسا).

غني عن البيان أن التقدم الذي حققته إمبراطورية المغول في النظم الإدارية والسياسية هو في الواقع استعارة من الحضارات التي احتلتها وبصفة خاصة الحضارتين الصينية والعربية. لم يتبن المغول والتتر فحسب مقومات الحضارة الإسلامية (والتي قامت بدورها على استعارة منجزات حضارات سابقة كالفارسية والهندية والمصرية..إلخ) بل واعتنقوا الدين الإسلامي في فترة لاحقة (كان الإسلام قد ترسخ في إيران وآسيا الوسطى وحوض نهر الفولغا قبل الغزو المغولي لتلك الأقاليم).

اعتناق بعض مناطق الإمبراطورية المغولية التترية للإسلام (وخاصة القبيلة الذهبية) هو الذي سيعزز من نشر الإسلام إلى منغوليا وسيبيريا وسينشره بشكل واسع في حوض الفولغا وستنشأ مدن إسلامية مزدهرة أهمها قازان عاصمة جمهورية تترستان في روسيا الحديثة.

وللإنصاف يستطيع مناصرو الحضارة الصينية أن يذهبوا بمثل ما ذهبنا إليه، إذ أن جنكيز خان منذ بداية تأسيسه للإمبراطورية المغولية التترية كان يستعين بمستشارين صينيين.

وبغض النظر عن تجاهل هذا الإسناد المهم، يمضي مؤلف الكتاب في نقل ما ساقه مفكرون روس - أمثال سافيتسكي وغيره – بشأن دور المغول فيقول:

"روسيا إذا هي وريثة الخانات العظمى، ومكملة إنجازات جنكيز خان وتيمورلانك، هي موحدة آسيا. في روسيا تلتقي العناصر التاريخية لسكان الحضر المستقرين و سكان السهوب الرحل".

جدير بالذكر أن رد الاعتبار لدور الشرق الآسيوي (المغول التتر / التورك وطوران) جاءت بعد دهر من اعتباره "الآخر" "المعادي" لحضارة البحر المتوسط بأسرها. فالإغريق كانوا ينظرون إلى هذه الأراضي التابعة لمملكة سكيثيا الكبرى على أنها منطقة يسكنها البرابرة والهمج.

وبالمثل كانت الحضارة الفارسية تضع نفسها في مواجهة هذا الشرق الآسيوي البربري فأسست ثنائية "إيران/طوران" في نمط من الجغرافيا المقدسة، وصارت "شيطنة" طوران وسكانها معلما من هوية الحضارة الإيرانية. وإلى جانب تلك الحضارات القديمة، كانت الكتب الدينية تعتبر منطقة أوراسيا مكان سكن وسيطرة الشخصيات المرتبطة بعلم الأخرويات "جحافل يأجوج ومأجوج". في حين كان ينظر إلى المناطق الواقعة إلى الشمال من سور الصين العظيم على أنها موطن " الشياطين".

اكتسب رد الاعتبار للمكون الآسيوي وإسهامه في تكوين الدولة الروسية زخما إضافيا على يد عالم الجغرافيا والأنثروبولوجيا ليف جوميليوف الذي أبدى قدرا عميقا من التعاطف تجاه الطورانية والثقافات البدوية في أوراسيا، من خلال ما كرسه من دراسات لتاريخ البدو الرحل، وعلى وجه الخصوص المجموعات العرقية التوركية. وعلى نحو ما وجدنا في مصر من مؤيدين ومعارضين لمصطلح "الفتح" و"الغزو" الإسلامي لمصر، تبنى جوميليوف مصطلح عصر "الفتوحات المغولية"، رافضا وصفها بـ "النير المغولي"، معتبرا أنه بفضل "القبيلة الذهبية" والمبادئ الاجتماعية لقانون "ياسا" الذي وضعه جنكيز خان تشرب الروس العظماء تقاليد البناء الإمبراطوري وحافظوا على الهوية الأرثوذكسية، ما مكنهم بعد ذلك من بناء إمبراطورية عالمية.

ثمة اتجاه في مدارس التأريخ الروسي يشير إلى أن الوقوع تحت سيطرة المغول جنب روسيا ويلات الاستعمار الآتي من الغرب اللاتيني. ترى تلك المدرسة أن بعض حكام الإمارات الروسية[*] في عهد

---

[*] خاصة حاكم شهير مثل ألكسندر نيفسكي، والذي حكم فيما بين ١٢٥٢ – ١٢٦٣م وكان حاكما على نوفغورد في شمال الأراضي الروسية.

السيطرة المغولية فضلوا البقاء تحت تبعية المغول حفاظا على الهوية الأرثوذكسية والثقافة الروسية أمام مخاطر الغرب اللاتيني(**).

على هذا النحو نظر المفكرون الروس إلى دور المغول الذين أتوا بالعبودية للجسد دون الروح، بينما اللاتينية هددت بتشويه الروح الأرثوذكسية. كانت اللاتينية بمثابة نظام ديني متشدد يسعى لإخضاع وتحويل نموذج الإيمان الأرثوذكسي للشعب الروسي على الهوية اللاتينية، في حين أن المغول – وفقا لهذه المدرسة - لم يكن لهم نظام ديني، بل ثقافي وسياسي، وحملوا معهم قوانين مدنية وسياسية وليس قوانين كنسية دينية تصرف الروس عن عقيدتهم.

يشير الكتاب إلى أن المغول في الأصل مجموعات متنوعة الديانات، فكان بينهم الشامان، ومعتنقو التنغرية، والنساطرة المسيحيون والبوذيون. وشددت تعاليم جنكيز خان على الفصل بين المسائل السياسية والدينية، وكان هذا هو الفارق الجوهري – بمضي المؤلف - بين الشرق المغولي والغرب الكاثوليكي.

استمر التناحر بين الأمراء الروس حتى وهم أسرى للتبعية المغولية، وكانوا يمكرون لبعضهم بعضا في حضرة البلاط المغولي لمكاسب آنية أو عطايا أو مزايدة على دفع الجزية لمكاسب سلطوية. وظلت الأوضاع هكذا إلى أن دب الشقاق والوهن في القبيلة الذهبية فتوقف الأمراء الروس عن دفع الجزية وكان عام ١٤٨٠ نهاية للخضوع وبداية للانعتاق من النفوذ المغولي.

قبل مائة سنة من انتهاء الحكم المغولي للإمارات الروسية، كان الروس يحاولون الفكاك بالتمرد أو التوقف عن دفع الجزية. وبرزت من بين الإمارات التي شقت عصا الطاعة للمغول إمارة موسكو وبصفة خاصة حين تحدت ورفضت دفع الجزية واشتبكت مع المغول وانتصرت عليهم في معركة كوليكوفو (٨ سبتمبر١٣٨٠). ورغم أن المغول عادوا في حملات تاديبية ألزمت الروس بدفع الجزية مجددا إلا أن المؤرخين يعتبرون معركة كوليكوفو بداية قرن متصل من "السعي" نحو التحرر من النفوذ المغولي، وعنها يقول المؤرخ الشهير ليف جوميليوف "خرج إلى ميدان كوليكوفو سكان إمارات مختلفة، وعادوا من هناك سكانا لدولة موسكو الروسية الموحدة".

(**) يذكر مؤلف الكتاب أنه في عام ١٢٤٠ قام الحاكم السويدي بيرغر، بتوجيه من بابا روما بشن حملة كاثوليكية صليبية ضد "الكفار" (أي الأرثوذكس) ونزلت القوات السويدية على ضفاف نهر نيفا، فتصدى لها ألكسندر نيفسكي وحطم قواتها، موقفا بذلك الهجوم التوسعي اللاتيني "الكاثوليكي".

القسطنطينية تسقط مرتين!

حين بات الأتراك العثمانيون على أبواب القسطنطينية في منتصف القرن الخامس عشر قرر اليونانيون (الأرثوذكس) الإقدام على خطوة غير مسبوقة، وهي التوجه لطلب المساعدة من الغرب (الكاثوليكي) رغم ما خاضوه سابقا لأسباب دينية وجيوسياسية من صراع امتد قرونا كانت كل كنيسة فيه تلعن أختها. وهكذا، فإن بيزنطة بإقدامها على التقارب مع العالم الكاثوليكي، تكون قد تخلت عن بيزنطيتها، وتكون البيزنطية الأرثوذكسية قد تخلت عن جذورها.

استجاب الغرب الكاثوليكي لطلب المساعدة بالدعوة لعقد "مَجْمَع فلورنسا" وأمام وعود البابا في العالم الغربي بالمساعدة الفورية في حشد المقاومة لصد الأتراك العثمانيين عن بيزنطة قدم البيزنطيون تنازلات جمة في جميع النقاط الرئيسية لصالح الكاثوليكية الرومانية وتخلوا عن المبادئ العقائدية الأساسية للأرثوذكسية، بل واعترف الوفد الأرثوذكسي رسميا "بسيادة الكرسي الروماني على الكنيسة المسيحية كلها"، وكان كل ذلك أملا في الحصول على مدد عسكري لصد التهديد العثماني. لقد كان هذا بمثابة استسلام روحي وتاريخي، وإقرار واعتراف بأن التاريخ الضخم الهائل للكنيسة الشرقية والأرثوذكسية كان "ضلالا" و"خطأ".

قبيل مجمع فلورنسا كانت الكنيسة الروسية تُعد ابنة للكنيسة البيزنطية منذ نشأتها، وكان مرسوم اختيار البطريرك الروسي يأتي من بطريرك القسطنطينية. وقبيل المجمع كانت القسطنطينية قد أرسلت مطرانها إيزيدور إلى موسكو في رتبة "مطران كييف وعموم روسيا" رافضة ترشيح الدوق الأكبر لموسكو فاسيلي الثاني للأسقف الروسي يونان.

وحين عقد مجمع فلورنسا كان إيزيدور مقربا من الإمبراطور البيزنطي يوحنا الثامن باليولوج، وقد رأس إيزيدور الوفد الروسي الكهنوتي في مجمع فلورنسا ومهد ودفع أكثر من غيره من اليونانيين لقبول جميع النقاط التي أصرت عليها الكنيسة الكاثوليكية(*). وقد منح بابا روما إيزيدور مسؤولية تنفيذ كل القرارات التي تم اعتمادها بمجمع فلورنسا ودعمه بكرامة "الكاردينال" وسلطة المندوب البابوي في ليتوانيا وليفونيا وروس وبولندا، أي في كامل أراضي أوروبا الشرقية.

(*) يذكر مؤلف الكتاب أن إيزيدور تلقى نظير اجتهاده في الدفاع عن المصالح الكاثوليكية من البابا إيجين الرابع عطايا مالية كبيرة، وبعد ذلك بقليل حصل على رتبة كاردينال بابوي.

ما إن عاد إيزيدور إلى موسكو لتنفيذ مهمته البابَاوية (والقاضية بموت التميز الأرثوذكسي واستسلامه الانهزامي أمام الكاثوليكية) في موسكو حتى تم القبض عليه وأودع السجن في انتظار حكم بالإعدام(**). لم يكن هناك ما يدعو موسكو لقبول الاستسلام الكاثوليكي الذي قدمته بيزنطة بسبب الضغط العثماني الوشيك باحتلالها، ولم تكن مجبرة على "التنازل عن المبادئ"، بل كان الوضع عكس ذلك تماما. ففي زمن الهيمنة المغولية الصعب استقى الشعب الروسي من الالتزام بالإيمان الأرثوذكسي القدرة على المقاومة. وعلى الجبهة الغربية كانت موسكو تنظر إلى اتحاد الكنائس والاتفاق مع اللاتين، بطبيعة الحال، على أنه تخلي عن الصراع مع ليتوانيا الكاثوليكية "الكافرة"، التي أخضعت الأراضي الروسية لهيمنتها وأذلتها من قبل.

كانت هذه الخطوة علامة فارقة في تاريخ الدين والسياسة في روسيا. فقد تبنت إمارة روس الموسكوفية بزعامة فاسيلي الأعمى رفضا قاطعا لمجمع فلورنسا المسكوني، متهمين قراراته بالهرطقة. من أجل هذا، ولأجل إدانة مجمع فلورنسا، عُقد في ١٤٤٨ مجمع الأساقفة الروس، الذين اختاروا مطرانهم دون الرجوع إلى بطريرك القسطنطينية (أصبح المطران الروسي يونان هو المطران الجديد)، ومنذ تلك اللحظة تبدأ الكنيسة الروسية في حساب الزمن الجديد – أي زمن استقلاليتها.

وهنا تتشكل حالة فريدة من نوعها، فبيزنطة اليونانية التي أخذ عنها الروس عقيدتهم وخضعوا لها وأطاعوها لعدة قرون في طقوسهم الدينية تتخلى عن العقيدة، في حين أن روس التي اعتنقت الأرثوذكسية على يد اليونانيين، هي التي أثبتت التزامها بالعقيدة والمثابرة عليها.

وبعد قرن من هذه الأحداث، وفي عام ١٤٥٣ حدث ما كان يعد له تدريجيا على مدار القرن الخامس عشر كله، إذ تمكن العثمانيون من فتح القسطنطينية وانهارت بذلك الإمبراطورية البيزنطية. لم تأت النجدة من الغرب الكاثوليكي. وذهبت أدراج الرياح كل الآمال التي رهنها البيزنطيون على الغرب الأوروبي.

كان سقوط القسطنطينية للشعب الروسي حدثا مزدوجا في تأثيره، فوفقا للتعاليم المسيحية الأرثوذكسية كن ذلك بمثابة نذيرا بقرب قدوم ابن الهلاك (المسيخ الدجال) ونهاية العالم. بدأ الكثير من الناس في الاستعداد ليوم القيامة وامتلأت نفوس الروس بهواجس ما قبل قيام الساعة الأخروية. ولكن

(**) تمكن من الفرار لاحقا وسرعان ما ظهر في بلاط الكرسي البابَاوي، كخادم مخلص للأفكار الكاثوليكية في رتبة الكاردينال.

في نفس الوقت كان زوال القسطنطينية بعد مجمع فلورنسا رسالة للروس تقول إن اليونانيين قد تخلوا عن العقيدة الأرثوذكسية النقية لاعتبارات وأسباب مادية سياسية ودنيوية، وها هو الرب عاقبهم وأوقعهم في أيدي الكفار العثمانيين.

ولأن الروس نظروا إلى أنفسهم باعتبارهم محافظين على تعاليم الآباء، وحافظوا على إخلاصهم للأرثوذكسية، وابتعدوا عن الوقوع في البدع والهرطقات التي وقعت فيها القسطنطينية قبل زوالها، فقد نجوا. وهكذا بدأ تشكيل مقدمات نظرية موسكو باعتبارها روما الثالثة. فمغذى هذه الفكرة مرتبط ارتباطا وثيقا بسقوط القسطنطينية. فالقسطنطينية سقطت، لكن موسكو لا زالت صامدة.

ختام القرن ١٥.. موسكو تُلَملِم أراضيها

في منتصف القرن السادس عشر كانت إمارة موسكو تجمع أراضي روس في وقت سقطت فيه كل من القسطنطينية والقبيلة الذهبية. في هذا التاريخ تبدأ موسكو مرحلة ستعرف باسم "حقبة موسكو القيصرية" والتي بدأ احتسابها من عهد إيفان الثالث (١٤٦٢ - ١٥٠٥). كانت أهم الخطوات في هذه المرحلة ضم الأجزاء الشمالية التي خضعت لنفوذ ليتوانيا (وخاصة مدينة سمالينسك وإمارة نوفغورد التي كانت أهم إمارات شمال روسيا في تلك الفترة).

كان إيفان الثالث في زواجه الثاني قد اختار الأميرة البيزنطية النسب صوفيا باليولوج، حاصلا بذلك على فرصة ربط ذريته بخط مباشر مع البيزنطيين. وخلال فترة حكمه بدأ رسميا تداول لقب "الأمير الأكبر لعموم روسيا" وخلال فترته أيضا سيصبح النسر البيزنطي ذو الرأسين الشعار الرسمي لروسيا (وسيبقى إلى اليوم).

وفي عهد إيفان الثالث وقع الحدث الذي يعد نقطة تحول في التاريخ الروسي بأسره: فقد أصاب الضعف التام القبيلة الذهبية أخيرا، وبعد مواجهة نهر أوغرا (١٤٨٠) أصبحت روسيا مستقلة تماما ومحررة من الحكم الخارجي. ولم تعد تدفع الجزية لأحد ولم يعد أحد يمنح مراسم التنصيب للأمراء.

في عهد إيفان الثالث وابنه وخليفته من بعده فاسيلي الثالث ستبدأ القوى الغربية في إدراك دور موسكو الجيوسياسي، من أمثلة ذلك سعت البندقية (فينيسيا) في حربهم في البحر المتوسط ضد الأتراك (١٤٦٣ - ١٤٧٩) إلى التحالف مع الروس، غير أن الطرف الأخير رفض بسبب انشغاله بجمع

الأراضي في الغرب والشمال (الحرب مع المملكة البولندية الليتوانية) ولم يكن لديه الطاقة والإمكانية لفتح جبهة مع الأتراك في الجنوب.

بموت فاسيلي الثالث يوضع على العرش ابنه إيفان الرابع الشهير بإيفان الرهيب (١٥٣٠ – ١٥٨٤) وسترى روسيا في نفسها حصنا منيعا للمسيحية العالمية. يقول مؤلف الكتاب إن هذا الحصن أحاط به من جميع الجهات إما "كفار" أو "مرتدون وزنادقة". في الوقت نفسه باتت موسكو مدعوة الآن للعمل بشكل مستقل، دون اعتبار لأية مرجعيات أخرى: بيزنطية، إمبراطورية، أو كليهما معا. بهذا الشكل ينظر القيصر الروسي لنفسه باعتباره حائلا ومانعا دون قدوم المسيخ الدجال! هكذا اكتسب عهد إيفان الرهيب قدرا بالغا من سمات العظمة والثراء، وفي كثير من الأحيان الدراما الدموية المفزعة.

بعد أن امتصت روسيا الدور الدولي لبيزنطة (أو هكذا اعتبرت نفسها) قامت بالخطوة التالية المهمة وهي غزو قازان وإسقاط أهم معاقل ما تبقى من القبيلة الذهبية المغولية الإسلامية. بسقوط قازان (١٥٥٢) ستتحول القبيلة الذهبية المغولية التترية من عامل دولي خارجي إلى شأن روسي داخلي، كما سينتهي إلى غير رجعة تهديد بدو السهوب وتبدأ روسيا رحلة طويلة وشاقة – لكن ناجحة - تحكم فيها قبضتها على الفضاء الآسيوي الذي كان سابقا مصدر تهديد واحتلال وإذلال.

يذهب مؤلف الكتاب إلى توصيف إيفان الرهيب بأنه الشخصية الأكثر تمثيلا للحاكم الفرد الأوراسي المستبد، الذي يجسد الملامح الرئيسية لروس باعتبارها قوة برية كاملة. فموسكو القيصرية تحت حكمه هي أيضا تمثل ظهور روس على مستوى العالم. فقد كانت إمارة موسكو الكبرى سابقا بالنسبة للأوروبيين مجرد كيان مهمشي صغير على المحيط، يتيه في ظلال جار غربي أكبر حجما ووزنا وتأثيرا وتمثيلا وهي ليتوانيا. أما من الآن فصاعدا فقد صارت واقعا مستقلا يحسب له الكل حسابا.

بسقوط القسطنطينية سيظهر مفهوم يقول إن موسكو هي "روما الثالثة". يشير هذا المفهوم تاريخيا إلى نظرية الانتقال الشرعي للراية الإمبراطورية *translatio imperii* من بلد إلى آخر. أحيانا يطلق عليها أيضا فكرة "روما الطوافة". تفترض هذه النظرية إعادة النظر في التاريخ الروسي وفي وضع الحاكم الروسي، الذي أصبح من الآن فصاعدا ليس فقط أميرا معظما (حاكما علمانيا)، ولكنه أصبح تحديدا الإمبراطور المقدس، وبالتالي، يحق لموسكو الإعلان عن ممارستها لحقها كوريثة لإرث بيزنطة. ومن الآن فصاعدا تصبح روس "بيزنطة جديدة"، والحاكم الروسي "إمبراطورا عالميا"، أو سيد الكون (بحسب الفهم المسيحي في تفسيره الأرثوذكسي).

روسيا بهذا المفهوم إذا هي "روس المقدسة"، مملكة عالمية، جوهر تاريخ العالم. أما الشعب الروسي فيصبح، بالتالي، "حامل الرب في داخله"، "شعب الرب المختار"!

ثلاثون عاما من الفتنة !

بعد وفاة إيفان الرهيب في ١٥٨٤ واجهت الدولة الروسية أزمة خطيرة، فبرحيل الحاكم المستبد القاسي الذي أمسك البلاد وأخضعها لإرادته الحديدية، حل الفراغ فجأة في ربوع الدولة. وستعيش روسيا نحو ثلاثة عقود – ثقيلة ومرعبة – يسميها المؤرخون مرحلة الفتنة والاضطراب وتدخل القوى الأجنبية (١٥٨٤- ١٦١٢).

بموت إيفان الرهيب (والترجمة الأخرى لاسمه هي "المرعب") يبدأ نزاع على من أحق بالحكم الشرعي في روسيا وسينفتح الباب أمام تدخل القوى الأجنبية (خاصة السويد وليتوانيا وبولندا وتتار منطقة القرم) التي تريد تنصيب حاكما يتبعها وينفذ أطماعها في تلك البلاد، وقد رافق ذلك اضطرابات داخلية تمثل أهمها في ثورة الفلاحين وتمرد قبائل القوزاق في الجنوب والاضطرابات التي رافقت المجاعة الرهيبة التي وقعت في ١٦٠١- ١٦٠٣.

وحين تمكنت بولندا في سبتمبر ١٦١٠ من إدخال قواتها إلى موسكو وتنصيب فلاديسلاف الرابع، الابن الأكبر لملك بولندا سيغيسموند الثالث، حاكما على روسيا كان ذلك احتلالا مباشرا وفقدانا تاما للاستقلال واستمر ذلك ثلاث سنوات كاملة خضعت فيها روسيا لهيمنة الغرب الكاثوليكي الأوروبي. كان المؤلم جدا – يقول مؤلف الكتاب - هو أن الطبقة الأرستقراطية الموسكوفية وعوائل النبلاء العريقة في البلاد توافدت لتقديم يمين الولاء للغزاة البولنديين، توافدوا بمحض إرادتهم -يقول المؤلف - لخيانة النظام الروسي والاستقلال الوطني والثوابت الدينية.

حاولت المقاومة الشعبية خلال الفترة من ١٦١٠ وحتى ١٦١٣ طرد الاحتلال البولندي وتحرير الأرض، غير أنها في كل مرة كانت تتقاتل فيما بينها وترتد على نفسها قبل أن تنجح أخيرا في عام ١٦١٣من التفاوض مع البولنديين وخروجهم من البلاد وتسليم موسكو لأهلها.

برعاية من الكنيسة تم انتخاب ميخائيل رومانوف (نجل بطريرك الكنيسة الروسية) ليصبح حاكما للبلاد ومعه تنتهي مرحلة الفتنة والاضطراب وتبدأ مرحلة توحيد روسيا وتوسعها مجددا، ومعها

أيضا ستبدأ أسرة رومانوف التي ستحكم مصير روسيا ثلاثة قرون ولن تنتهي إلا بقيام الثورة البلشفية في عام ١٩١٧ تلك الثورة التي ستغتال إمبراطور روسيا الأخير "نيكولاي الثاني" آخر حكام أسرة رومانوف.

ثلاثون عاما من الفتنة والاضطراب قوضت كل المكتسبات التي حققها عهد إيفان الرهيب، وخلفت ورائها خسائر كبيرة في الأراضي خاصة في المناطق الحدودية مع كل من السويد وبولندا وليتوانيا، كما فقدت روسيا منفذها على الخليج الفنلندي. وسيتوجب على حكام "روس" بداية من ١٦١٣ خوض مرحلة طويلة لبناء الدولة وتدعيمها على الساحتين الداخلية والخارجية.

بطرس الأكبر...الملاحة بعد الفلاحة

مر القرن السابع عشر في محاولات روسية ناجحة لتجاوز النتائج السلبية لعصر الفتن والاضطرابات. ويعتبر عهد بطرس الأكبر (١٦٧٢- ١٧٢٥) نقلة نوعية في جغرافيا السياسة في روسيا. فقد غير هذا القيصر أسلحة روسيا من قوة البر إلى قوة البحر مؤسسا أسطولا روسيا عصريا – بخبرة من أوروبا الغربية – وموجها إياه لاستنزاف طاقة الإمبراطورية العثمانية ومحققا في ذات الوقت انتزاع أراضي مهمة في البحر الأسود (والتي بدأت بالسيطرة على بحر آزوف) لتصبح منافذ لروسيا في على المياه الدافئة في الجنوب.

بعد أن حقق بطرس الأكبر مكاسب ملموسة على الجبهة التركية في الجنوب، توجه إلى الجبهة الشمالية مع السويد التي نجح في أن ينتزع منها منفذا على بحر البلطيق عند مصب نهر النيفا، وهناك في عام ١٧٠٣ شرع في تأسيس عاصمته الجديدة (مدينة سان بطرسبرغ).

في ١٧١١ وحين أغرته قوته بالتوسع مجددا على حساب الأتراك، دار بطرس الأكبر بجيشه نحو مصب نهر الدانوب (غرب البحر الأسود) محرضا الرعايا المسيحيين ضد الدولة العثمانية، غير أن الجيش التركي حاصره وكاد يفتك به ويوقعه في الأسر لولا معاهدة سلام نجح فيها في أن ينجو بنفسه وبجيش في مقابل التنازل عن سيادة روسيا على بحر آزوف وتسليمه مجددا للأتراك.

أمضت روسيا في عهد بطرس الأكبر الفترة من ١٧١١ إلى ١٧٢٢ في الصراع مع السويد بشأن بحر البلطيق. وبداية من عام ١٧٢٢ ولمدة عامين لاحظت روسيا الضعف والانهيار الداخلي في فارس فسارع الجيش الروسي باحتلال الساحل الغربي لبحر قزوين الذي كان يقع تحت النفوذ الفارسي.

ووصلت جيوش بطرس الأكبر إلى قلاع دربند وباكو ورشت واستراباد ولم تستطع التوغل أكثر بسبب نفوذ الإمبراطورية العثمانية.

وثقت روسيا نجاحها البحري فعقدت في ١٢ سبتمبر ١٧٢٣ اتفاقية سان بطرسبرغ مع بلاد فارس، والتي بموجبها أُدرج الساحل الغربي والجنوبي لبحر قزوين مع مدن دربند وباكو وأقاليم جيلان ومازندران وأستراباد في الإمبراطورية الروسية. ثم أعقب ذلك موقف دولي جديد تمثل في اتفاقية القسطنطينية بتاريخ ١٢ يونيو ١٧٢٤ التي اعترفت فيها الدولة العثمانية بجميع فتوحات روسيا في الجزء الغربي من بحر قزوين.

لم يهمل بطرس الأكبر الجبهة الشرقية، وفي عهده ضم شبه جزيرة كمتشاتكا. وفي عمق آسيا الوسطى بدأ حملاته الاستخباراتيه لاستطلاع سبل منافسة بريطانيا في الهند.

على هذا النحو، عزز بطرس الأكبر الوزن الجيوسياسي لبلاده، ووسع أراضيها، ووحد كل ذلك تحت إدارة مركزية واحدة (مستبدة شمولية بامتياز). وفي هذا يمكن اعتبار روسيا في عهد بطرس قوة "أوروآسيوية" بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

على المستوى الديني ستتراجع في عهد بطرس الأكبر فكرة روما الثالثة وستتأثر البلاد بالتغريب الثقافي والأوَّربة والنزعات العلمانية في الحكم والإدارة. بل شهدت بعض فترات حكمه سخرية من العقيدة الأرثوذكسية وتهكما على الكنيسة ومواقف إلحادية.

توفي بطرس الاكبر في ١٧٢٥ تاركا بعده حكاما أقل حنكة وقدرة، وخلال فترة امتدت لنحو أربعة عقود (١٧٢٥ – ١٧٦١) لا يذكر التاريخ الروسي حكام تلك الفترة سوى في إشارات عابرة إلى أن اعتلت العرش كاترينا الثانية (العظمى).

كاترينا العظمى ..عصر الإمبراطورية الذهبي

بمؤامرة داخل القصر في سان بطرسبرغ وصلت إلى العرش كاترينا الثانية في ١٧٦٢ واستمرت تحكم روسيا حتى عام ١٧٩٦. ويعتقد بعض المؤرخين أن فترة حكم كاترينا الثانية التي امتدت ٣٤ سنة هي "العصر الذهبي للإمبراطورية الروسية"، فخلالها ازدادت أراضي الدولة الروسية بشكل كبير نتيجة لضم الأراضي الجنوبية الخصبة للقرم، وأراضي البحر الأسود، والجزء الشرقي من الاتحاد البولندي الليتواني؛ وفي عهدها بدأ الاستعمار الروسي لجزر ألوتيان وألاسكا، وازداد عدد سكان الإمبراطورية بنحو

١٥ مليون نسمة (من ٢٣ مليون نسمة في أول حكمها إلى ٣٨ مليون نسمة وقت وفاتها)، وأصبحت روسيا الدولة الأكثر سكانا في أوروبا (بلغ سكانها آنذاك ٢٠٪ من سكان أوروبا) وتأسس في عهد كاترينا الثانية ٢٩ محافظة جديدة، وشيدت نحو ١٤٤ مدينة.

ورغم قيام ثورات شعبية انتفاضا ضد الاستبداد (كثورة إميليان بوغاتشوف) إلا أن السلطة الحاسمة كانت مستعدة للرد بعنف شديد على المتمردين وأخمدت ثورتهم التي تفشت كالنار في الهشيم في منطقة الأورال وحوض الفولغا.

استفادت كاترينا في خططها الداخلية من تحييد الاحتكاك العسكري مع إنجلترا بوصفها قوة البحر، بل كانت إنجلترا في معظم الأحيان حليفا لروسيا في غالبية القضايا الأوروبية. وبالتالي، لم يتم شحذ أو ملاحظة خط التوتر بين حضارة البحر وحضارة البر في هذه الفترة التاريخية.

ورغم الفارق الزمني الذي يبلغ نحو أربعة عقود إلا أن بعض المؤرخين يعتبرون عهد كاترينا تتويجًا لمبادرات بطرس الأكبر، وكرست نموذج "الاستبداد المستنير"، وهو الجمع بين نمط العصر الحديث الأوروبي والنموذج المركزي القوي للسلطة وطبيعته المستبدة. وعلى المستوى الديني كانت الأرثوذكسية حاضرة على الهامش في دولة علمانية ذات توجه ثقافي غربي وتحديثي أوروبي.

بعد وفاة كاترينا في عام ١٧٩٦ اعتلى العرش ابن بطرس الثالث وكاترينا الثانية، الإمبراطور بافل، وفي عهده انضمت روسيا للتحالف المعادي لفرنسا (ضم التحالف بريطانيا والنمسا وتركيا ومملكة الصقليتين ومملكة نابولي). وعُين القائد العسكري ألكسندر سوفوروف قائدا عاما للقوات الروسية باعتباره أفضل قائد عسكري في أوروبا. وانتقلت لإدارته أيضا القوات النمساوية. وتحت قيادة سوفوروف تم تحرير شمال إيطاليا من السيطرة الفرنسية.

في الجبهة الآسيوية أرسل الإمبراطور الروسي بافل إلى آسيا الوسطى كتائب الدون المسلحة، التي كانت مهمتها غزو إمارتي خيوة وبخارى.

وبسبب الصراع داخل القصر الروسي تم اغتيال بافل، وبعد موته ستبدأ مرحلة جديدة تسعى فيها فرنسا إلى غزو أوروبا .. وروسيا من بينها، بعد أن كانت فرنسا نابليون وروسيا بافل يجهزان جيشا مشتركا لغزو الهند لطرد بريطانيا من هناك.

نابليون يحتل موسكو ..ألكسندر يغزو باريس !

على خلاف ميول بافل للتقارب مع فرنسا اتخذ ابنه ألكسندر خطا معاكسا وعقد تحالفا مع إنجلترا ضد فرنسا وهو الأمر الذي اعتبره الباحثون خطأ فادحا من جانب روسيا (قوة البر) التي قامت بمحاربة فرنسا (قوة بر أخرى) لصالح إنجلترا (العدو البحري الدائم). لم تصمد روسيا أمام فرنسا وتلقت عدة هزائم في ١٨٠٧ وجدت روسيا معها نفسها مضطرة لقطع التحالف مع إنجلترا بل وتوقيع اتفاقية تحالف ضد إنجلترا نظير بعض المكاسب الجغرافية.

لم يدم التحالف الروسي الفرنسي كثيرا، واتهم نابليون شريكة الروسي بخيانة التحالف بينهما، فشن هجوما موسعا لغزو الأراضي الروسية. سيعرف التاريخ تلك الحرب باسم الحرب الفرنسية الروسية عام ١٨١٢ وسيسميها الروس "الحرب الوطنية[*]"

حقق نابليون نجاحات مبهرة في البداية تمثلت في انسحاب القوات الروسية وفرارها أمام قوات نابليون بل وانسحب من موسكو بعد حرقها. اتبعت القيادة العسكرية للجيش الروسي والإمبراطور ألكسندر الأول سياسة التهرب من المعركة الفاصلة بشتى الطرق، والتراجع، والتحرش بجيش نابليون بمعارك صغيرة في مؤخرة الجيش، مما اضطر الفرنسيين بتوسيع خطوط الاتصال والابتعاد عن الأراضي الأوروبية في اتجاه الشرق[*].

وبعد أن أُنهك نابليون وتقلصت قواته إلى ثلث ما كانت عليه في بدء المعارك ارتد الجيش الروسي – بقيادة قائد عسكري سيعرفه التاريخ أبدا هو الجنرال كوتوزوف – وواجه الجيش الفرنسي وبدا في مطاردته وإخراجه من روسيا ثم من شرق أوروبا ٠بخسائر بشرية فادحة في كلا الجيشين الروسي والفرنسي) وانتهت الحرب في ديسمبر ١٨١٢ بالتدمير الكامل للجيش الفرنسي الغازي وعاد نابليون إلى

---

[*] يعتبر المؤرخون الروس أن التسميات الغربية متحيزة وتعبر عن المركزية الأوربية، ومن ثم يعطون للغزو النابليوني لروسيا اسم "الحرب الوطنية" كما يسمون الغزو الألماني خلال ما يسمى غربيا "الحرب العالمية الثانية" مسمى آخر هو "الحرب الوطنية العظمى".

[*] يشير مؤلف الكتاب إلى أن المحاربين البدو الآسيويين السابقين على قيام حضارة روس (من شعوب سكيثيا وغيرها في أوراسيا) كانوا هم من ابتدع خدعة استدراج قوات العدو لأراضيهم، وينهكوهم كرا وفرا حتى يصلوا إلى المؤخرة، ويقوموا بقطع الاتصالات مع البر الرئيسى، وبهذا الشكل يحققون النصر "في النهاية".

باريس بحجة تجهيز جيش جديد، خسائر نابليون في روسيا وهزيمة جيشه المروعة اجبرته في ١٨١٤ على التخلي عن عرش فرنسا.

في ٣١ مارس ١٨١٤ دخلت القوات الروسية بزعامة الإمبراطور الروسي ألكسندر الأول باريس على رأس قوات التحالف الأوربية، وأصبح ألكسندر واحدا من قادة مؤتمر فيينا الذي أرسى نظاما أوروبيا جديدا.

صحيح أن روسيا تحررت من غزو نابليون وتابعته في عقر داره، لكن بكلفة بالغة للغاية، كانت إنجلترا هي المستفيد الأول والرابح الأكبر بعد قامت القوتان البريتان (روسيا وفرنسا) بتدمير بعضهما البعض.

القرم مسرحا في اللعبة الكبرى(**)

منذ فترة حكم ألكسندر الأول، أو بالأحرى منذ عام ١٨١٣، يمكن حساب بداية ما يسمى بـ"اللعبة الكبرى" في تاريخ العلاقات الدولية. يزعم مؤلف الكتاب أن دافع الإمبراطورية الروسية للتوسع إلى الشرق هو الرغبة في "تمدين الشعوب المتخلفة في آسيا الوسطى"، والوصول لسلع ذلك الإقليم وعقد اتفاقات تجارية سلمية، وخاصة للقطن، ووقف غارات الشعوب المحلية على أراضي الإمبراطورية الروسية.

أما بريطانيا فكانت تخشى الخسارة المحتملة للهند وتعزيز قوة الإمبراطورية الروسية على الساحة العالمية نتيجة الوصول المحتمل للمحيط الهندي عبر بلاد فارس وأفغانستان عن طريق الاستيلاء على أراض جديدة.

(**) مصطلح أطلقه ضابط المخابرات الإنجليزي آرثر كونولي في وصفه للتنافس بين الإمبراطوريتين البريطانية والروسية من أجل السيادة في آسيا الوسطى خلال الفترة من ١٨١٣– ١٩٠٧. وفي وقت لاحق، حصلت هذه العبارة على شهرة كبيرة على يد الكاتب البريطاني روديارد كيبلنج الذي استخدمها كثيرا في تناوله للتاريخ الاستعماري الإنجليزي في الهند. وبعد تفكك الاتحاد السوفيتي وعودة ما سمي بالحرب الباردة – خاصة في القوقاز وآسيا الوسطى – دبت الروح في المصطلح مرة أخرى، هذه المرة ليس فقط في الكتب والمؤلفات الأكاديمية والرسمية بل وفي التناولات الإعلامية بمختلف صورها. ويوسع البعض دلالات اللعبة الكبرى على المستوى الجيوسياسي لتشمل المواجهة بين قوتين عظميين، كما في المواجهة بين قوة البر وقوة البحر.

بداية من عام ١٨١٣ كانت الدبلوماسية البريطانية تراقب بقلق النجاحات العسكرية للقوات الروسية ضد بلاد فارس، والتي انتهت بضم روسيا أراضي أرمينيا الحالية وأذربيجان. وكان العسكريون البريطانيون يدربون الجيش الفارسي ويعيدون تسليحه، كما كانوا يزودون المتمردين الشركس بالسلاح للانفصال عن روسيا.

ومن ثم كان القوقاز يعد جزءا مهما من مسرح اللعبة الكبرى بل والعصب الرئيس لتصادم روسيا وإنجلترا على الحدود الجنوبية للإمبراطورية الروسية، التي كانت ملاصقة إما لمستعمرات إنجليزية، أو لأراض بها تأثير إنجليزي قوي.

في طريق إنجلترا البحرية للسيطرة على العالم وقفت قوة واحدة فقط "روسيا البرية" ، التي ستكون المواجهة المباشرة معها في حرب القرم أكثر اللحظات الدرامية في سياق "اللعبة الكبرى".

لم تكن اللعبة الكبرى حكرا على المواجهة بين روسيا وإنجلترا، فالإمبراطورية العثمانية المتداعية كانت جزءا من مسرح الصدام. كانت روسيا في تلك الفترة تتدخل في "المسألة الشرقية" عبر بوابة البلقان، تحت ذريعة حماية السكان الأرثوذكس وضمان حقوقهم الدينية والمدنية، بل ودعم استقلالهم عن الإمبراطورية العثمانية.

كانت روسيا خلال الحروب الروسية التركية في أعوام ١٨٠٦- ١٨١٢ (في عهد ألكسندر الأول) و١٨٢٨- ١٨٢٩ (في عهد نيكولاي الأول) قد حققت نجاحات كبيرة في تنفيذ استراتيجية الاستيلاء التدريجي لأراض بعينها من تحت البساط العثماني. وبطلب من روسيا، التي أعلنت نفسها راعية لجميع المسيحيين الخاضعين لحكم السلطان، اضطر السلطان للاعتراف بحرية واستقلال اليونان (التي بقيت منذ سقوط القسطنطينية ولنحو أربعة قرون تحت الاحتلال العثماني ولم تحصل على استقلالها سوى في ١٨٢١).

ونظرا للمواجهات المستمرة بشأن ملاحة الأسطول الروسي في البحر الأسود، وتكرار تدخل روسيا في الشأن العثماني المتمثل في دعم المسيحيين الأرثوذكس في الإمبراطورية العثمانية تدهورت العلاقات بين تركيا وروسيا في عام ١٨٥٣، وما ترتب عليه من إعلان تركيا الحرب على روسيا. وتميزت بداية الحرب مع تركيا بالانتصار الباهر للأسطول الروسي تحت قيادة الأدميرال ناخيموف، والذي هزم الأتراك في خليج سينوب (جنوب البحر الأسود).

رغم المصلحة المشتركة لروسيا وإنجلترا في ضرورة هزيمة الإمبراطورية العثمانية إلا أن ذلك كان سيصب في صالح روسيا التي ستتوغل على حساب تركيا في الأقاليم الجغرافية المتفككة عن تلك الإمبراطورية. حين اندلعت الحرب بين تركيا وروسيا في ١٨٥٤ أدارت الإمبراطورية النمساوية ظهرها لروسيا، ووقفت بريطانيا وفرنسا إلى جانب تركيا.

نشبت الحرب في عام ١٨٥٤ بعمليات عسكرية تركزت في شبه جزيرة القرم، وتكبد فيها الجيش الروسي سلسلة من الهزائم، وفي نهاية الحرب اضطرت روسيا للتوقيع على اتفاقية باريس للسلام التي مُنعت روسيا بموجبها من أن يكون لها قوات عسكرية بحرية في البحر الأسود، أو ترسانات وقلاع. كانت الهزيمة في حرب القرم ثقيلة لروسيا ولموقعها العالمي ومكسبا لأعدائها ..خاصة فرنسا وإنجلترا.

سينتظر الروس عقدين كاملين قبل أن يشرعوا من جديد في ١٨٧٧-١٨٧٨ بشن هجوم على تركيا في موجة جديدة من موجات حرب القرم والبلقان محققين بعضا من النجاحات في الساحل الغربي للبحر الأسود، واستعادت روسيا حق الملاحة في هذا البحر مجددا.

في عام ١٨٨٥ – وضمن فصول اللعبة الكبرى – وقَّعت روسيا وإنجلترا إتفاقية تشكيل لجان عسكرية روسية/بريطانية لتحديد الحدود النهائية بين روسيا وأفغانستان. وكان ذلك مساومة تقاسم خلالها الطرفان المكان: روسيا ضمت آسيا الوسطى وإنجلترا ضمنت عدم توغل روسيا إلى الهند أو معاكستها هناك.

في مواجهة اليابان

كانت اليابان في القرن التاسع عشر بلدا إقطاعيا، لكن بفضل ثورة "ميجي" في ١٨٦٧- ١٨٦٨ استعادت حيوتها وكانت تحت تأثير ثلاثة أقطاب: إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية (من أجل التعاون العسكري البحري) وألمانيا (من أجل بناء جيش بري إمبراطوري قوي).

بنهاية القرن التاسع عشر تمخض النمو الاستعماري الياباني عن احتلال كوريا وتايوان وهو ما سبب تهديدا مباشرا للصين. وكي تحتوي روسيا التوسع الياباني في الشرق الأقصى سارعت إلى التحالف مع الصين في عهد القيصر نيكولاي الثاني الذي أبرم مع الصين في ١٨٩٦ تحالفا عسكريا ضد اليابان وافقت الصين بموجبه على بناء خط السكك الحديدية الشرقي الصيني العابر لشمال منشوريا والواصل

إلى فلاديفوستوك على المحيط الهادئ، وتم تأجير الموانئ الصينية بورت آرثر (لوشون) ودالني (داليان) مع الأراضي والمياه المحيطة بهما لروسيا لمدة ٢٥ عاما.

هكذا دعمت روسيا موقفها من خلال استئجار روسيا لشبه جزيرة لياودونج، وبناء خط السكك الحديدية الشرقي الصيني، وإنشاء قاعدة بحرية في ميناء بورت آرثر، وتنامي نفوذها في منشوريا، وهو ما اصطدم بتطلعات اليابان، التي كانت أيضا تدعي ملكيتها لمنشوريا.

في ١٩٠٤، نشبت الحرب الروسية اليابانية بمعركة حربية في بورت آرثر وانتهت بالهزيمة التامة للأسطول الروسي واعترفت روسيا بكوريا مجالا لنفوذ اليابان، وتنازلت لليابان عن جنوب سخالين كما أعطتها الحق في شبه جزيرة لياودونج مع مدينتي بورت آرثر ودالني (شمال شرقي الصين).

في هذا الموقف الضعيف لروسيا أقدم القيصر نيكولاي الثاني على خطوة حاسمة في الاتجاه المعاكس لسياسة أسلافه على مدى أكثر من قرن مضى حين قام في عام ١٩٠٧ مضطرا إلى التحالف مع إنجلترا، ويعد هذا التاريخ نهاية "اللعبة الكبرى".

سقوط آخر القياصرة

مع القيصر الروسي نيكولاي الثاني، الذي اعتلى العرش في عام ١٨٩٤ تنتهي الأسرة الحاكمة لبيت رومانوف، وينتهي بشكل عام تاريخ النظام الملكي في التاريخ الروسي. وهذه لحظة درامية لها أهمية سياسية واجتماعية وأيديولوجية وجيوسياسية هائلة للتاريخ الروسي برمته، وتاريخ القرن العشرين، وبالتأكيد لتاريخ العالم بأسره.

بعد هزيمة روسيا في حربها أمام اليابان وما تلى ذلك من ثورة داخلية في ١٩٠٥ في عام ١٩٠٧ وقع نيكولاي الثاني في ١٨ أغسطس ١٩٠٧ اتفاقية مع المملكة المتحدة على ترسيم حدود مناطق النفوذ في الصين وأفغانستان وبلاد فارس، والتي بشكل عام أكملت تشكيل تحالف القوى الثلاث المعروف باسم الوفاق الثلاثي (إنجلترا – روسيا – فرنسا) وكان التحالف موجها ضد ألمانيا وتركيا. كانت الحركات التحررية في البلقان ضد تركيا هي البداية. ومع عام ١٩١٣ زاد خضوع الجيش التركي بصورة فعلية للقيادة الألمانية. وفي يوليو ١٩١٤ بدأت الحرب التي كانت روسيا فيها تواجه أطرافا عدة (ألمانيا ، تركيا، النمسا التي هاجمت الصرب في البلقان)

في صيف عام ١٩١٥ تدهور الوضع على الجبهة الروسية بشكل كبير، وبدا الجيش الروسي المهزوم في الانسحاب من مدن الجبهات، وكان أشهرها الجبهة الأوكرانية، ثم استسلمت وارسو وبولندا كلها وجزء من ليتوانيا. وواصل الألمان والنمساويون الهجوم على روسيا. مع الانهزام في الحرب على الجبهة الألمانية والنمساوية والتركية، تفاقم الوضع السياسي الداخلي ونمت قوى المعارضة داخل روسيا. مجبرا، قبل الإمبراطور التنازل عن العرش في ٢ مارس ١٩١٧ بسبب مشاق الحرب، وتضارب الخطوات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وزيادة الفوضى الاجتماعية وتفعيل مختلف القوى الثورية البرجوازية والقوى الأكثر راديكالية واشتراكية.في هذه الأثناء ستظهر في روسيا قوة سياسية جديدة يمثلها "الشيوعيون" وسينتهي ألف عام من تاريخ الحكم الملكي الروسي وستبدأ صفحة جديدة يتخلق منها "الاتحاد السوفيتي".

من روسيا الشيوعية إلى روسيا بوتين

فصول الشيوعية والاتحاد السوفيتي قريبة للقارئ العربي، منذ قيام النظام حتى سقوطه في ١٩٩١. بعد انهيار الشيوعية وتفكك العملاق السوفيتي ستعيش روسيا عشر سنوات بالغة الخطوة (١٩٩١- ٢٠٠١) مهددة بانفصال الأقاليم والجمهوريات (وكادت الشيشان أن تكون البداية في حربين داميتين دفع فيهما الشعب الشيشاني ثمنا باهظا). الأهم من مخاطر التفكك الجغرافي كان تعرض المجتمع الروسي لمخاطر التفسخ وتعرضه لهزات عنيفة على مستويات مختلفة: نفسية، اجتماعية، اقتصادية...الخ. وسيترك ذلك آثاره في علاقاته الداخلية ومواقف حكوماته الدولية.

السنوات العشر الصعبة في حياة روسيا منذ تفكك الاتحاد السوفيتي والتي هزت مكانتها ودورها (١٩٩١-٢٠٠١) والتي سيكون بطلها بوريس يلتسين ستتغير دفتها بوصول فلاديمير بوتين إلى الحكم. سيخوض بوتين – كما سيظهر تفصيلا في الكتاب – مسارات بالغة الصعوبة والحراك، وسيكون ضم القرم والحرب في أوكرانيا في ٢٠١٤ أحدث المشاهد.

هل يفيدنا هذا الكتاب في بيئتنا العربية؟

هذا الكتاب إضافة مهمة للمكتبة العربية لأنه يطرح لنا في أكثر من ٥٠٠ صفحة معلومات نطلع عليها للمرة الأولى باللغة العربية عن تاريخ روسيا وجغرافيتها ومكوناتها الاجتماعية بشكل يجمع بين النهج الموسوعي والتحليلي في آن.

ويمثل الكتاب الذي بين أيدينا "صوتا من الداخل" وليس رؤية أوروبية أو أمريكية عما جرى في روسيا منذ النشأة وحتى اليوم. يتبنى مؤلف هذا الكتاب رؤية قومية وطنية ساعية إلى تحليل علاقة روسيا بالعالم من حولها وفقا لمعطياتها القوية وقدراتها البشرية والطبيعية. وهو يتكلم بصوت روسي مع قراء روس، لا يتجمل ولا يخفي عباراته، يكشف من دون قصد عن الافتنان الروسي التاريخي بالتوسع وبناء الدولة الكبرى، بكل السبل.

يلقي هذا الكتاب بحجر ضخم في مياه البحث العلمي في الجغرافيا السياسية والتطورات الجيوسياسية لمصر والعالم العربي نظرا لما ينادي به من أن مناطق التكسر والاصطدام بين قوى الشرق والغرب لم تصغ بعد نظريتها الجيوسياسية ومفاهيمها الجغرافية السياسية، ولم تخرج من دائرة التبعية.

يقدم هذا الكتاب أكثر من ٦٠ خريطة يطلع عليها القارئ العربي لأول مرة. وأود هنا أن أشير إلا أن إخراج الخرائط في الكتاب الأصلي لم يكن موفقا، إذ جاء كثير منها دون الإخراج الفني المطلوب وعانى كثير منها من التشويه وبدت خرائط كثيرة غير مقروءة وبعيدة عن الوضوح.

وقد أعدنا في الترجمة العربية إنتاج هذه الخرائط من جديد مستعينين بأفضل البرامج الكارتوغرافية الرقمية، وكان ساعدنا الأيمن في ذلك رسام الخرائط السيد/ شادي سعد، أحد الخريجين النابهين من قسم الجغرافيا بجامعة القاهرة. والخرائط التي يضمها الكتاب في نسختها العربية هي إضافة مهمة للغاية عن تاريخ روسيا وتطور جغرافيتها السياسية.

كما لا يفوتنا أن نوجه الشكر للباحثة الأستاذة/ أماني فايز التي ساعدتنا في أعمال التحرير وتوحيد مصطلحات المترجمين الثلاثة وتغذية الكتاب بهوامش مهمة للقارئ العربي.

"جغرافية السياسة في روسيا" أو كما جاء في العمل الأصلي "جيوبوليتيكا روسيا" ليس كتابا نطلع عليه قبل النوم أو في عربات السفر، إنه عمل مرجعي جديد طالما انتظرته مكتبتنا العربية، ونزعم أن هذا الكتاب لابد أن يكون على طاولة القراءة والبحث لكافة صناع القرار في مصر وعالمنا العربي وخاصة وزارات الخارجية وسفارتنا العربية في موسكو التي هي في حاجة ماسة إلى أن تطلع على شهادة من الداخل الروسي عن جوهر تجربة هذه الدولة ومطامحها وتحدياتها.

قراءة هذا الكتاب ليست هدفا في حد ذاته كي نعرف روسيا، بل كي نعرف أنفسنا، وماذا يريد الروس منا، وماذا ينتظرون من منطقتنا، والأهم: ماذا نحن فاعلون في مستقبلنا وفقا لأضواء هذه التجربة النادرة.